قراءة في كتاب (رحلتي إلى البقاع المقدسة) للأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر

أ. د. محمد بن محمد العطوي ابن سمينة*

تحاول هذه الكلمة – أيها القارئ الكريم – أن تصل بينك وبين هذا العمل الأدبي من مكتبة الأدب الجزائري الحديث (رحلتي إلى البقاع المقدسة...) للمرحوم الأستاذ باعزيز بن عمر وهو من بين ما فتئ المجلس الإسلامي الموقر ينشره – في إطار ما يقوم به من نشاط علمي وفكري وأدبي – من آثار الجزائريين : علماء وأدباء ومفكرين، خدمة لتراث الأمة وإحياء لثقافتها وتعريفا بآثار رجالاتها..

ويمكن أن يتركز النقاش في هذه الكلمة تعريفا بهذا العمل وبصاحبه في هذه المحاور :

أولا – المدخل

ثانيا – صاحب النص

*. جامعة يوسف بن خدة، الجزائر.

ثالثا – من صاحب النص إلى النص

رابعا – الصورة التعبيرية

خامسا – الخلاصة

أولا – المدخل : تعود صلتي بالأدب الجزائري الحديث إلى أيام دراستي (في فترة الستينات) بكلية الآداب جامعة دمشق بسوريا وكان من أثر ذلك أن أعددت مذكرة التخرج من هذه الكلية ببحث يتصل بـــ (الأدب الجزائري الحديث).

وعندما عدت إلى أرض الوطن بادرت بالتسجيل في الدراسات العليا بجامعة الجزائر وكان موضوع البحث في الماجستير (محمد العيد آل خليفة شعره الإسلامي) وأطروحة البحث في الدكتوراه (أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد بن باديس المضمون وصورة التعبير).

وكنت في الوقت ذاته أشتغل بتدريس الأدب الجزائري الحديث في الجامعة نفسها فكان من ذلك ما ساعدني على تعميق صلتي بهذا الأدب في مظانه الأساسية : مصادر ومراجع أعلاما وأعمالا من عهد الأمير عبد القادر إلى العصر الحاضر وتمكنت في هذه الأثناء من أن أعقد بعض الصلة المباشرة ببعض الأدباء الجزائريين المعاصرين وكانت لي مع بعضهم الآخر صلة عن طريق القراءة لأعمالهم وعن طريق أعمال وروايات غيرهم من المعاصرين لهم ومن بين هؤلاء صاحب هذا العمل الأديب الأريب الأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر عليه رحمة الله ومن ثم فقد كانت صلتي به ومعرفتي له تقوم على هاتين الدعامتين ولهذا فإن حديثي عنه في هذه الكلمة سيتركز أساسا على مصدرين اثنين :

1. ما وصلت إليه بشيء من القراءة لبعض أعمال باعزيز، وبعض المصادر والمراجع المتصلة بالأدب الجزائري الحديث.

2. ما سمعته من الروايات من بعض المعاصرين له عن بعض الجوانب من حياته.

ثانيا– صاحب النص : إن الأستاذ باعزيز بن عمر (1906-1977) واحد من عناصر الكتيبة الأولى التي ساقت العناية الإلهية جنودها إلى مجالس العلم والتكوين وحلقات الإرشاد والتوجيه التي شرع الإمام ابن باديس في تنظيمها عقب عودته من رحلة الطلب والتحصيل في جامع الزيتونة بتونس قبيل الحرب العالمية الأولى (1913)، وذلك بمدينة قسنطينة مهد النهضة الثقافية والفكرية وعاصمة العلم والأدب في الجزائر واستمر الإمام ينهض بهذه المشروع التربوي الحضاري إلى أن انتقل إلى جوار ربه رحمة الله عليه.

كان الكاتب كغيره من عناصر تلك الكتيبة الرائدة قد نهل من معين علم الإمام ومن سديد توجيهاته حتى تخرج على يديه من مدرسته ومن معقله العلمي ورباطه الجهادي ثم دخل من بعد إلى غمار الحياة العملية على نهجه مقتفيا أثره سائرا على دربه مستلهما توجيهاته في خدمة الدين والوطن والأمة والإنسانية فأتاح له ذلك مواكبة حركة النهضة الوطنية وهي تبسط من بين دياجير ليل الاحتلال نور فجرها في سماء الوطن وفوق أرضه، مع مطلع العشرينات من القرن العشرين فاكتسحت شعلة ضياء تلك النهضة المباركة حجب الظلم والظلام فانجلى ليل الاحتلال البهيم عن إشراقة فجر منير.

كانت الخطوات الأولى للكاتب على طريق الجهاد في ميادين النهضة قد تحققت بدءا في الحقل التربوي فكان أحد رجال المنظومة التعليمية الحرة : معلما مربيا في مدارسها وعضوا عاملا في لجنة التعليم العليا التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتشرف على حركة هذه النهضة التربوية التعليمية وقد ظل الكاتب وفيا لهذا الخيار ناهضا بهذه الرسالة إلى أن توفاه الله إلى رحمته.

كان الشيخ باعزيز واحدا من رجالات الحركة الوطنية الحضارية فسجل له التاريخ في هذا الميدان جهودا محمودة لما كان يقوم به من وعظ وإرشاد وتكوين وتوجيه كان يقوم بذلك عمليا عن طريق الخطابة ودروس الوعظ والإرشاد ويقوم بذلك نظريا من خلال ما كان يكتب وينشر من أعمال.

ناضل الكاتب في الحقل الإعلامي يوم أن كانت عيون الظلم والجور بزعامة (دعاة الحرية وحماة الحقوق الإنسانية...!) تكمم الأفواه وتترصد كل كلمة حرة تنبجس بها شفتا أحد المستضعفين المكبلين المتطلعين إلى نور الحرية ويحرص أولئك المحتلون على ارتكاب جريمتهم تلك أشد الحرص فيحاولون أن يطفئوا ضياء تلك الكلمة المجاهدة وإخماد صوتها الغاضب وإيقاف زحفها الراشد وهي في طريقها تضيء الدروب أمام قوافل المجاهدين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾[1].

1. التوبة، 32.

لقد ظل الكاتب - بالرغم من جور تلك الظروف وخطورة تبعاتها - حاضرا في هذا الميدان فكان أحد محرري بعض الصحف الوطنية وواحدا من أعضاء أسرة تحرير مجلة الشهاب الباديسية وجريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء هاتين الصحيفتين اللتين كانتا في مقدمة ما عرفت الجزائر في عهد نهضتها من الجرائد ذات الفاعلية في مختلف وجوه الحركة الوطنية أصالة مبدأ وثبات موقف وسمو مقصد.

كان الأستاذ باعزيز أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر كاتبا وخطيبا، كتب في الخطابة والرحلة من الفنون النثرية القديمة وكتب في المقالة والمحاضرة والمسرحية وغيرها من الفنون النثرية الحديثة اندمج في قضايا الواقع الوطني ومضى كغيره من أدباء جيله يناضل إلى جانب أمته يسهم في حركة جهادها ويواكب تطورات قضاياها ويحدو مسيرة تطلعاتها.

كان ذلك الواقع بكل ما يمر به من اضطرابات وصراعات وبكل ما يهدف إليه من تطلعات وغايات يمثل العالم الذي يستولي على اهتمامات الكاتب وتتمحور معظم أعماله على معالجة مشكلاته مثله في ذلك مثل غيره من فرسان الكلمة المناضلة في الجزائر وفي غيرها من البلاد الحرة.

ويحسن التذكير في هذا الباب أن أبرز فن أجاد فيه الكاتب وسخا بجملة من الروائع في ساحته قلمه وصال وجال في ميدانه أدبه إنما هو فن المقالة وبخاصة المقالة الاجتماعية التي يعد الشيخ باعزيز أحد أعلامها البارزين من بين كتاب المقالة الجزائريين المعاصرين.

وبعد فقد كان الأستاذ باعزيز (الفتى الزواوي) بهذه المهام النبيلة التي اضطلع بها وتلكم الإسهامات الفاعلة التي جاد بها في مختلف ميادين الجهاد : معلما مربيا وداعية مصلحا ووطنيا غيورا، وصحافيا حرا وأديبا ملتزما كان باعزيز بتلكم المهام النبيلة والمقاصد الرشيدة أحد (فتيان زواوة) الأمازيغ الأحرار الأوفياء الذين أخلصوا دينهم لله وصدقوا في حبهم للوطن فأخذوا مواقعهم في حلبة الصراع الدائرة رحاه بين أمتهم وبين المعتدين المغتصبين منافحين عن حقوق أمتهم ذائدين عن قيمها غيورين على مقومات شخصيتها.

ثالثا– من صاحب النص إلى النص : نبادر بالقول أن أدب الرحلة واحد من الفنون النثرية القديمة في أدبنا العربي وقد اشتهر به وكتب فيه كثير من الأعلام الرحالة العرب من بينهم (ابن جبير، ابن بطوطة، الإدريسي، العبدري، العياشي وغيرهم ومن بين من اشتهر بهذا الفن من الجزائريين قبل العصر الحديث بعض الرحالة من بينهم (الورتلاني تـ 1713م – أحمد بن عمار تـ 1771 – بوراس المعسكري 1778م – المشرفي 1778م وغيرهم).

ويحدد الدارسون أدب الرحلة في الأدب العربي في ثلاثة أنواع هي :

1. **الرحلة العلمية** : ويكون الباعث عليها الرغبة في الارتحال طلبا للعلم وقد كان الناس وما يزالون يضربون في آفاق الأرض يترلون بأمصارها ويجوبون أطرافها سعيا وراء المزيد من اكتساب المعرفة وتحصيل العلم.

2. **الرحلة الدينية** : ويكون الدافع إليها العامل الديني الذي يدفع صاحبه إلى شد الرحال قاصدا البقاع المقدسة في الحجاز بغرض أداء فريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام والقيام بمناسك العمرة بالبيت الحرام وزيارة الروضة النبوية الشريفة.

3. **الرحلة العامة** : ويكون من ورائها جملة من العوامل من بينها : الرغبة في التجوال والسياحة في بلاد الله للوقوف على بعض ما في ملكوت الله من آيات وعبر وعظات مما يتبدى في خلقه في السماوات وفي الأرض ثم التعرف على الأمم الأخرى وما تتميز به من معارف وطباع وخصوصيات رغبة في الادكار والاعتبار وطلبا لكسب الرزق الطيب الحلال.

وقد عرف أدب الرحلة كغيره من الفنون النثرية القديمة شيئا من التطور في العصر الحديث فأخذ مكانه إلى جانب ما تضطلع به الفنون الأدبية الأخرى في الوقت الحاضر من الاندماج في الواقع والنهوض به

وقد اشتهر من بين الجزائريين في العصر الحديث بعض الرحالة الذين جابوا أرجاء الوطن كما ارتحلوا إلى بعض البلدان في العالم وبخاصة إلى البقاع المقدسة بالحجاز ومن بين من كتب منهم في الرحلة الحجازية هؤلاء الأدباء (محمد الغسيري، أحمد توفيق المدني، أبو القاسم سعد الله) وصاحب هذه الرحلة التي بين أيدينا فماذا عن ذاك العمل ؟

نبادر بالقول أن الكاتب لم يبن خطة رحلته على أقسام أو فصول وإنما أقامها على جملة من العناوين حسب الموضوعات المعالجة واستهلها بمقدمة

وختمها بخلاصة ومما تحسن الإشارة إليه في هذا السياق أن بناء الرحلة على هذا النحو لم يؤثر سلبا على خطتها فجاءت منتظمة يربط بين أجزائها شيء من التنظيم والإحكام ويندر فيها التداخل والاستطراد.

وقد استهل الكاتب نص رحلته بتحديد زمانها ومكانها فذكر أن يومها الأول كان يوم الأربعاء التاسع من مارس 1966. أما المكان فكانت انطلاقتها من مطار (الدار البيضاء) بالجزائر العاصمة ثم مضى يفصل القول في بعض موضوعات الرحلة فكانت الجزئية الأولى التي وقف عندها هي : (قضية التعريب) بالجزائر وقد كانت هذه القضية وما تزال من بين أهم المسائل التي تأخذ مكان الصدارة من انشغالات معظم أفراد الشعب الجزائري، غيرة على أصالتهم ومحافظة على هويتهم وقد تطرق الكاتب إلى هذه المسألة في معرض تنويهه باستخدام مصلحة الاستعلامات بالطائرة (اللغة العربية) فيما تقدمه من إعلانات للركاب ويدل استهلال الكاتب رحلته بالحديث عن هذه القضية الوطنية الهامة دلالة عميقة عما يكنه صدره وصدر جميع الجزائريين الأحرار من حب واعتزاز وغيرة ووفاء نحو لغتهم العربية التي قضى أعلام الأمة – والكاتب واحد منهم– أعمارهم ينازلون الأعداء في ساحات الجهاد ذودا عنها ومحافظة عليها وما يزال سلفهم على هذا الطريق يجاهد وفاء لهذه اللغة ونشرا لها وإسهاما في ترقيتها وتوسيعا لآفاق الحركة ومجالات العمل من أمامها.

ثم انتقل الكاتب إلى الحديث عن بقية فقرات برنامج رحلته، مصورا مشاهداته، مسجلا انطباعاته، مبديا آراءه، فيما سمع وفيما رأى، مما أعجبه ومما لم يرق له، مما أسره ومما أسف عليه من تصرفات ومعاملات...

يذكر الكاتب أن أول محطة نزل بها في رحلته هذه هي مدينة (مرسيليا) بفرنسا، مرورا بغيرها من المدن الفرنسية ثم (إيطاليا) ومنها إلى بعض البلدان العربية (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن فالمملكة العربية السعودية).

حرص الكاتب على أن يرسم بعض الملامح من تلك البلدان التي مر بها فوقف في البلاد الأوربية عند بعض المناظر الطبيعية وبعض مظاهر العمران وبعض منجزات المدنية الحديثة وتطورات التقدم العلمي وغير ذلك مما وصل إليه الغربيون بجدهم وكدهم وفاعليتهم وحرصهم على النظام والتزامهم بالانضباط وإقبالهم على العمل وحسن استثمارهم للوقت وما إلى ذلك من منظومة القيم المدنية التي هي من أساسيات وأصول تعاليم ديننا بينما نرى كثيرا من أهل الشرق يزهدون في تلك القيم ويقعدون عن طلبها لما اعتلت به ضمائرهم ونفوسهم من أدواء الجهل والتقاعس والتواكل و لم يفت الكاتب في هذا السياق أن يتوجه ببعض العتاب لبعض إخوانه المسلمين جراء تقاعسهم عن البحث في أسباب العلاج لما ألم بهم في هذا العصر في عقولهم وفي قلوبهم في أعمالهم وفي سلوكهم من علل وأسقام مما جعلهم يعزفون عن التفتح على عطاءات العقل البشري وما وصل إليه أهل الغرب على نهجه من علم وتقنية وعمران وغير ذلك من منجزات المدنية الحديثة.

وإن الكاتب لم يكن يهدف بموقفه هذا الحكيم المتبصر من تلك المدنية إلى التنويه بها والإشادة بأفضالها وكيف ذلك وهو واحد من جماهير شعب اكتوى بنار استدمارها وتلظى بجحيم استكبارها طوال

قرن وثلث وما يزال ؟ كما أن الكاتب يدرك من نحو آخر أن هذه المدنية إنما أساسها وقوامها المادة وحظها مما يقابل ذلك قليل وشأن ذاك الذي يقابلها عند كثير من أولئك الناس مبخوس مما يجعل تلك المدنية بتلك المعادلة لا تتماشى مع مبادئ ديننا وقيم حضارتنا وبهذا يمكن أن يفسر موقف الكاتب ويفهم على حقيقته من تلك المدنية الذي لم يكن يهدف من خلاله سوى أن يهز ضمائر الجامدين المنغلقين من بني جلدتنا الزاهدين في العطاءات العلمية والمكتسبات العقلية لهذه المدنية علهم بذلك يبصرون أنوار الحقيقة فيسارعون إلى الأخذ بناصيتها ويقبلون على أخذ حظهم من العلم والمعرفة فيفوزون بذلك في استرجاع مكانتهم اللائقة بهم بين الأمم المتقدمة، كما يعكس ذلك الموقف من نحو آخر، تمثل الكاتب كسائر إخوانه من رجالات الحركة الإصلاحية، ما يحث عليه الإسلام في هذا المجال من دعوة حارة إلى المسارعة في اقتطاف ثمار الحكمة حيثما وجدت، دون غير ذلك من القيم الخلقية والخصوصيات الثقافية للأمم الأخرى، وذلك لأننا نحن المسلمين أغنياء في ذلك بما في ديننا من أصول وقيم وحضارة..

وقد وقف الكاتب أيضا وقفة أطول وأشمل عند كثير من وجوه الحياة العامة في البلاد العربية التي كانت محطة عبور له في رحلته، وقد خص البيئة الحجازية (أماكن مقدسة، مساجد، أسواقا، معالم آثار، مظاهر عمران ومناظر طبيعية وغيرها بوقفة متأنية ولا غرو في ذلك فإن هذه البقاع المقدسة حرية بذلك وأكثر وحسبك من ذلك أن قصة الحضارة

الإسلامية قد سطعت أنوارها مع انبثاق فجر الدعوة الإسلامية من فوق أرضها الطاهرة وترعرعت في صحاريها ووهادها وجبالها ونجودها أمجاد التاريخ الإسلامي وتلألأ بها من بين جدران غار حراء ضياء الوحي الإلهي بجوار البيت الحرام بمكة المكرمة ومن هنالك طارت إشعاعات ذلكم الوحي إلى طيبة (المدينة المنورة) حيث (مسجد قباء) الذي هو أول مسجد أسس على تقوى من الله ورضوان في التاريخ الإسلامي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام ولم يلبث ذلكم الوحي أن عم ضياؤه أرض الجزيرة ثم أرجاء المعمورة كلها وكان من ذلك ما كان مما شمل الورى وعم العالمين من حق وخير.. وعدل وإحسان.. وأمن وسلام...

وقد حرص الكاتب وهو يستروح عبر هذه الأجواء الآمنة عبير النسمات العطرة أن يشرك القارئ الكريم فيما تعبق به تلك الرياض من شذى تلك الظلال الوارفة الزكية التي تملأ صدور الحجيج بما يشع من بينها من أريج فيوض الإيمان وطمأنينة القلب وسكينة الروح فتحف هاتيك الأنداء ضيوف الرحمن بسحائب من الرجاء في عفو الله ورحمته ومغفرته وتغمر نفوسهم بفيض من أطياف الرضا والحبور بهاتيكم المثابة الكريمة وذلكم الفوز العظيم وينوه الكاتب وهو في هذا السياق بالجهود الحميدة التي ما فتئت تبذلها السلطات في المملكة العربية السعودية في خدمة ضيوف الرحمن من خلال ما تحرص على توفيره من أسباب الأمن ووسائل المواصلات ومراكز الرعاية الصحية ومكاتب الإرشاد، المزروعة هذه وتلك في كل حي من أحياء مكة المكرمة والمدينة المنورة وفي عرفات

وفي كل حدب وصوب من أرض منى وغير ذلك من أماكن الشعائر الأخرى مما يساعد الحجيج – إن شاء الله – على أداء مناسكهم على أحسن وجه وأكمل طريق.. (ص. 136 وما بعدها) وعمد الكاتب من جهة أخرى بدافع الزيادة في تحسين عملية القيام بأركان هذه الفريضة أن يشير إلى بعض ما ينبغي أن يسمو عنه سلوك الإنسان المسلم في كل زمان وفي كل مكان وبخاصة في ديار منازل الوحي مما يشوب أحيانا بعض السلوكات من سلبيات وتتردى إلى هوته بعض المعاملات مما يعكر الأجواء ويرهق الأعصاب ويكدر النفوس من مثل هذه المظاهر (شدة الازدحام، كثرة الضجيج، قلة النظافة، اضطراب النظام، انتشار ظاهرة التسول..) وغير ذلك مما كان ينبغي أن تتنزه عنه أخلاق العباد وبخاصة في تلك الأماكن المقدسة (آه من إسلام حوله جهل المسلمين إلى طقوس وحركات وأقوال لا تمت إليه بسبب (...) مما يأتيه بعض المسلمين داخل مسجد نبيهم، فهذا راقد وهذا يأكل ويشرب وذاك يهرج أمام جمع من أصحابه وهو يظن أنه يحسن صنعا ويعلم ويفقه غيره في دينه) (ص. 68).

وإن المتأمل فيما يصطدم به الإنسان في تلك الأرض الطاهرة من هاتيك المظاهر المشينة يدرك أن أصحابها إنما أتوا بها من بلدانهم التي جاؤوا منها يؤكد ذلك ما يلمسه المرء من فروق في مستوى السلوك سموا وهبوطا بين حجيج هذا البلد أو ذاك ويدل ذلك على أن معظم تلك السلبيات مردها إلى انتشار ظاهرة الجهل بين كثير من الحجاج مما أدى إلى ضعف قدراتهم على استيعاب تعاليم الإسلام وعجزهم عن السمو إلى مقام ما ترشد إليه تلك التعاليم من قيم وأخلاق.

وقد يعلل بعض ذلك بالنقص في العناية اللازمة بتكوين الحجاج وحسن إعدادهم في بلدانهم بما يمكنهم من السمو بسلوكهم إلى مقام هذه الرحلة الميمونة.

ويمكن أن يستثنى من ذلك ما تقوم به في هذا المجال بعض الدول الإسلامية وفي مقدمتها (ماليزيا وأندونيسيا) هاتان الدولتان اللتان تبذلان عناية ملموسة بتكوين حجيجها وحسن إعدادهم لهذه الرحلة ويشهد على ذلك ما يلمسه المرء في الواقع المشهود من سمو في سلوك حجاج هذين البلدين مما يميز سلوكهم عن سلوك غيرهم من سائر الحجيج. ومن بين ما يزيد هذه المظاهر السلبية ترديا في أوساط الحجيج تقصير بعض البعثات المرافقة لهم المكلفة برعايتهم في القيام بواجبها نحوهم وقصورها في متابعة شؤونهم وتزداد هذه الحاجة إلى هذه العناية وهذه المتابعة إلحاحا وضرورة لدى بعثات تلك البلدان التي يكون كثير من حجيجها من العجزة وكبار السن وذوي المستوى التعليمي الضعيف ويمثل حجاج بلادنا (نموذجا بارزا) في هذا المضمار.

ويمكن القول أن هذه الوضعية غير الطبيعية المتصلة بهذه الرحلة إلى البقاع المقدسة بالرغم من أن بعض العوامل المتسببة فيها ما تزال حية ترزق بين ظهرانينا فإن الظروف العامة التي أصبحت تتم فيها هاتيك الرحلة حاليا قد عرفت تحسنا ملموسا في كثير من جوانبها (في تطور وسائل المواصلات، توفير أسباب الأمن، تبسيط الإجراءات الإدارية، تنظيم عملية الإيواء، تحسين الظروف العامة المتصلة بأداء المناسك في جميع أماكنها).

ويمكن أن يضع المرء يده على هذه الوجوه من التحسينات بقيامه بموازنة بسيطة بين ما لمسه من حديث الكاتب عن ذلك وبين ما يمكن أن يستحضره مما يكون قد قرأه في نصوص الرحلات القديمة عن الظروف الصعبة التي كانت تتم فيها تلك الرحلات قبيل العصر الحديث فقد كان معظم الحجاج آنذاك يأتون إلى البقاع المقدسة راجلين وتستغرق رحلة بعضهم إلى مقصدهم شهورا وفي ظروف تكاد تنعدم فيها أسباب الأمن وتكثر فيها احتمالات التعرض إلى الأخطار ويلقى الحجاج أثناءها من جراء بعد الشقة ألوانا من المشقة وصنوفا من العناء والنصب ويتعرضون إلى ما قد يتعرضون له من السلب والنهب ويحمد الله على السلامة من نجا منهم من جريمة القتل وآب إلى أهله سالما، وغانما – إن شاء الله – حجا مبرورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور. (ص. 126 وما بعدها).

وإن المتصفح لنصوص الرحلات الحجازية القديمة يقف على صور مرعبة كثيرة ترسم ما يتعرض له الحجيج من أخطار في هذه الرحلة وبحمد الله فقد تحسنت ظروف هذه الرحلة عموما عما كانت عليه قديما.

ويمكن أن نمثل لذلك بظروف هذه الرحلة من بلادنا فقد ازدادت هذه الظروف في هذه السنوات الأخيرة تحسنا ملحوظا بالموازنة عما كانت عليه أثناء قيام الكاتب برحلته هذه (1966) أي قبل حوالي أربعين سنة من تاريخ اليوم فقد رأينا أن رحلة الكاتب قد استغرقت زمنيا ما يزيد عن أسبوع وتنقل فيها حجاجها عبر ثلاث قارات هي (إفريقيا، أوروبا، آسيا) وولجوا أثناءها عددا من المطارات في عدة من البلدان، وركبوا متن عدد من الطائرات بينما أصبحت هذه الرحلة في الوقت الحاضر لا تستغرق

أكثر من خمس ساعات ولا يمتطي الحجاج أثناءها سوى صهوة طائرة واحدة ولا يلجون إلا أرض مطارين اثنين (مطار الانطلاق) بالدار البيضاء في الجزائر العاصمة و (مطار الوصول) بجدة في المملكة العربية السعودية.

وإن من يكون قد ارتحل إلى البقاع المقدسة هذه السنوات يكون – ولاشك– قد شاهد ولمس ما تقر به عيناه ويثلج صدره مما تعرفه أرض الحجاز في الوقت الحاضر من وجوه النهضة في مختلف الميادين الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانيةومن ذلك ما مس بخاصة الحرمين الشريفين وغيرهما من الأماكن المقدسة من توسعة وترميم، وما عرفته عملية الرمي بمنى – وهي من أصعب المناسك – من تسهيلات وتنظيم.

وإن هذه الجهود ما تزال متواصلة على هذا الطريق لتحقيق المزيد من وجوه التعديلات والتحسينات بغرض البلوغ بها – إن شاء الله – إلى أقصى ما يمكن بلوغه من وجوه السمو بها إلى ذلكم المقام الرفيع، ليكون ذلك خير عون لضيوف الرحمن على أداء مناسكهم في هذه الفريضة على أسلم طريق وأكمل وجه والله المستعان.

رابعا – الصورة التعبيرية : نباد بالقول أن أبرز ما يميز وجوه الصياغة التي اختارها الكاتب للتعبير عن تجربته في هذا النص – من حيث طريقة طرحه للمعاني ومعالجته لها ومن حيث انتقاؤه أدوات صنعته – إنما هو المنهج الواقعي الذي دخل الكاتب ومعظم أعلام الأدب العربي الحديث في الجزائر إلى غمار الحياة العملية من بابه وقد ظل الكاتب وفيا لهذا المنهج طوال مسيرة حياته في مواقفه الميدانية وفي إسهاماته العملية وفي أعماله الأدبية.

ويمكنك أيها القارئ الكريم أن تضع يدك على جملة من سمات هذا المنهج الواقعي في هذا العمل ولعل أول ما يتبدى لك من ذلك :

1. حرص الكاتب على الاندماج في المحيط المتصل بحياة الأمة والتقاطه من مختلف وجوه أحوال الناس به بعض الصور السلوكية وبعض المشاهد الحسية.

2. انتقاؤه لذلك المضمون الواقعي جملة من القيم التعبيرية الموائمة : ألفاظا وتراكيب صورا وأساليب.

3. كان الكاتب يستمد هذا وذاك من محيطه القريب (مجتمعه) ومن محيطه البعيد (عصره) ومن مرجعيته الثقافية التراثية ومن عطاءات النهضة الفكرية والأدبية الحديثة في دائرتها العربية الإسلاميةوما يتصل بها من روافد الثقافة الحديثة لدى الأمم الأخرى.

4. إن ما يمكن تسجيله في هذا السياق أن أقرب هذه المرجعيات إلى ميول الكاتب وأبرزها حضورا في تجربته هذه وفي معظم آثاره، هي مصادر الثقافة العربية الإسلامية ويأتي في مقدمتها : (القرآن الكريم .والسنة النبوية الشريفةوما يتصل بهذين المصدرين من أمهات كتب التراث الفكري والأدبي) وتشكل هذه المصادر جميعها – إلى جانب قضايا الواقع – المنهل الذي لا ينضب لأفكار الكاتب ومشاعره وتوجهاته وقيمه التعبيرية.

5. كان لحرص الكاتب على تصوير بعض خلجات نفسه وخواطر وجدانه ورسمه بعض اللوحات الواقعية من مفردات برنامج رحلته وما اتصل بذلك من مشاهد وسلوكات وما تخللها من انطباعات وارتسامات كان لذلك كله أثره في طبع أسلوبه بجملة من السمات من مثل (القرب

والوضوح والبساطة واليسر) وهذه السمات هي بعض خصائص النثر الاجتماعي الذي يعد الكاتب واحدا من أعلامه.

وكان الكاتب - إلى جانب تلك الخصائص – قد استخدم في بناء صورته التعبيرية بعض أدوات الأسلوب القصصي مما يمكن أن يوضح بعض ما يتلاقى فيه أدب الرحلة وفن القصة من حيث بعض مقوماتهما الأسلوبية ومن ذلك هذان اللونان (السرد والوصف)

أما السرد فيظهر في وقوف الكاتب عند جملة من المعلومات التاريخية من أطوار بلاد الحجاز خاصة ولا سيما منها الأماكن المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما من تلك الأماكن) وسرده مجموعة من اللقطات من برنامج رحلته (تنقلاته ومشاهداته) رصده بعض الصور السلوكية من حياة الناس في بعض البلدان التي مر بها أثناء هذه الرحلة.

أما الوصف فيبدو في ميل الكاتب إلى رسمه بعض اللوحات من المظاهر الطبيعية والمواقع الجغرافية وبعض المشاريع العمرانية وتصويره بعض وجوه حركة تطور المجتمع في بعض البلدان، وبخاصة في المملكة العربية السعودية ثم وصفه بعض الأحوال العامة للأمة وبعض الملامح الخاصة من سلوك بعض الحجيج وبعض وجوه أدائهم لمناسك هذه الفريضة في هذا الموسم الديني الهام.

وكان الكاتب يمزج فيما يصف من هذه الوجوه ما بين الوصف المادي (وصف المظاهر، المناظر، التصرفات، المعاملات) وبين الوصف المعنوي المتصل بالعالم الداخلي للإنسان (من حيث مشاعره، أفكاره، انشغالاته،

تطلعاته) ويمكن أن يلمس القارئ هذا وذاك من خلال ما عرض له الكاتب من مشاهد وما عالجه من قضايا، وما أفصح عنه من مشاعر، وما ناقشه من أفكار وما رمى إليه من مقاصد...

ومما تحسن الإشارة إليه من نحو آخر أن الكاتب قد عالج في رحلته هذه من القضايا الاجتماعية والسياسية ما كان يعالجه من موضوعات مماثلة في غيرها من كتاباته داعيا أفراد أمته إلى النهوض بواقعهم والاهتداء في حركة جهادهم بأصول دينهم ومميزات حضارتهم والتزامهم بالمحافظة على مقومات شخصيتهم وأخذهم بأسباب العلم والعمل وإقبالهم على الحلال الطيب من شؤون الحياة وتفتحهم على عطاءات العقل ومستجدات العصر.

خامسا – الخلاصة : كان الكاتب قد انطلق في عمله هذا من قلبه ومن عقله بآن، مما ساعده على أن يمزج في رحلته بين الروح والمادة بين الدين والأدب بين التاريخ والسياسة بين الحاضر والماضي كما استطاع من نحو آخر أن يوفر لمضمونه هذا من القيم التعبيرية ما مكنه من توصيل أفكاره ونقل مشاعره إلى المتلقين من أقرب طريق وبأفصح بيان وقد زاد أفكاره سموا وموضوعية وإنسانية وزاد أسلوبه إشراقا وبيانا وقدسية ما حاول أن يرصع به جبين صنعته من بيان القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض ألوان من الحكمة وشيء من الشعر.

وقد وفق الكاتب – بالتزامه في نصه بما التزم به من صدق وموضوعية وأصالة وإنسانية وبما وفى به في صياغته بجمعه فيها ما بين بساطة الفكرة

ووضوحها وصدق الشعور وحرارته ويسر التعبير وجماله وشرف المقصد ونبله – وفق الكاتب بذلك بأن يعكس مفهومه للرسالة الأدبية الواقعية كمعظم أدباء جيله مما ساعده على تسخير قدراته العقلية ومواهبه الشعورية ومواقفه الميدانية على طريق الوفاء بأمانة التبليغ والوقوف إلى جانب أمته في حلبة الصراع الدائر بينها وبين المعتدين دفاعا عن حقوقها وذودا عن قضاياها ومنافحة عن قيمها ومقومات هويتها مما مكنه من أن يأخذ موقعه في طليعة جبهة النضال الوطني إلى جانب أعلام جيله المجاهدين (أدباء مدرسة النهضة).

وبعد فإن هذا العمل يبرز بحقائقه الموضوعية وقيمه التعبيرية ما تتميز به شخصية صاحبه (الفتى الزواوي) الوطني المصلح المربي المخلص الأديب الملتزم من فيض شعوره الديني وصدق إحساسه الوطني وشدة غيرته على قيم أمته ومقومات شخصيتها وخالص التزامه بالذود عن قضاياها وتطلعاتها...

وبعد، فيبدو- أيها القارئ الكريم - أن أطراف الحديث في هذه الكلمة قد امتدت وطالت بين يديك وأخالك متسائلا عن السبب في ذلك ؟ الجواب : أن بعض ذلك قد يعود إلى صاحب هذا الكلمة (عقله وقلبه ولسانه) غير أن معظم ذلك ما كان يكون إلا بدافع الرغبة في الوفاء ببعض الواجب نحو واحد من رجالات أمتنا الميامين (الشيخ باعزيز بن عمر) تعريفا به ووقوفا عند أحد أعماله الأدبية مما يمكن أن يزيدنا كلنا قربا منه وتقديرا له واعتزازا بما يطفح به أدبه من ظلال وأنداء وبما ينشده

من قيم ومقاصد مما ينعش الصدرويمتع الوجدان ويسمو بالعقل ويصقل المواهب ويهذب السلوك وينير الطريق...

وتود هذه الكلمة بعد، أيها القارئ الكريم – قبل أن تخلي بينك وبين هذا النص الذي بين يديك لتقبل عليه فتثقف عقلك وتطهر قلبك وتزكي نفسك وتوسع مداركك وتعمق تجربتك وتسمو بذوقك.. من خلال ما يزخر به هذا العمل من حقائق موضوعية هادفة وقيم أدبية رفيعة – تود هذه الكلمة أن تذكرك أن هذا العمل الذي بين يديك إنما هو واحد من بين أعمال كثيرة لغير قليل من أعلام الأمة جادت بها قرائحهم في فترة النهضة ما تزال حبيسة في أحضان صحف تلك المرحلة في بعض أروقة المكتبات الخاصة وفي دهاليز بعض المكتبات العامة داخل الوطن وفي بعض مخازن المكتبات الأجنبية من وراء البحر.

وأما ما يتعلق من ذلك ببعض الدراسات لغير (أولئك الأعلام المتقدمين) من الدارسين الجامعين في زماننا الحاضر فحدث ولا حرج عن تكدسها وتراكمها وضيق صدرها من سوء حالها وهي على ذلك الحال وأن هذه الأعمال وتلك ما تزال هنا وهنالك على وضعيتها المذكورة تنتظر من يحنو عليها فيمد إليها يده فيطلق سراحها فتأخذ طريقها إلى أهلها فيقرؤون من خلالها صفحات مشرقة من جهاد أمتهم وتضحيات شعبهم.

وإن المجلس الإسلامي الأعلى وهو يقوم بهذه المبادرة الطيبة بنشره لهذه الرحلة في إطار إسهاماته المتعددة في هذا الميدان، إنما يعبر بذلك عن وعيه

العميق بما سبقت الإشارة إليه، مما هي عليه وضعية بعض تراث الأمة... ويفصح عن شعوره الصادق بالواجب تجاه ذلك مما جعله يسهم في نشر جملة من أعمال عدد من الأدباء والمفكرين الجزائريين في مختلف فروع العلم والمعرفة : في الدين والأدب في الفكر والثقافة في التاريخ والسياسة في الاجتماع والاقتصاد، وفي غير ذلك.

وإن الغيورين الأوفياء من أبناء هذه الأمة، ليذكرون بصادق الاعتزاز.. وجميل العرفان.. لذلكم المجلس الموقر.. ولرئيسه الأستاذ الدكتور أبوعمران الشيخ.. هذه المحمدة، وهذه المكرمة، وتلكم الجهود الطيبة.. ويطلبون المزيد من ذلك.. خدمة لتراث أمتهم ونشرا لثقافتها وإحياء لتاريخها، ومحافظة على شخصيتها وتقديرا لجهود رجالاتها.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.. ويتسابق المتسابقون من أهل الخير والصلاح.. إلى فعل الخيرات والقيام بالأعمال الصالحات.. والله يحب الصالح من العمل.. ويجزي حسن المثوبة عنه.. ويحب الخير.. ويجزي به...